

## بساطة الله بحسب القديس غريغوريوس بالاماس

### الأستاذ جورج مانتزاريديس

#### نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

السمة الأساسية لله هي بساطته. لو لم يكن الله بسيطًا، بل مؤلفاً من أجزاء مختلفة، فلا بد أن هذه الأجزاء كانت موجودة قبله. مثل هذا الإله لن يكون سببًا وخالقًا لكل الأشياء، ولن يكون إلهًا حقيقيًا، أو أصل كل الأشياء. ولأنه أصل كل الأشياء، فلا يمكن أن يكون معقدًا بل يجب أن يكون بسيطًا. علاوة على ذلك، فهو ليس مجرد "بساطة المبسّط ووحدة الموحد" [١]. إذًا، دون أن يتخلّى عن بساطته غير المشوّشة، فهو حاضر تمامًا "غير مشوّش وغير منقسم في كل الأشياء وفي كل من المخلوقات" [٢]. يقول القديس غريغوريوس بالاماس أن الله ليس جسدًا ضخمًا لا يمكن أن يتسع في مساحة صغيرة، بل هو غير جسدي. لهذا السبب، يمكن أن يكون "حاضرًا في كل مكان وفوق كل شيء وفي الواحد". بغض النظر عن صغر حجم الشيء الذي نفكر فيه يمكنه أن يتسع له [٣].

البشر ليسوا بسيطين، بل مركّبون، وهذا لا يرجع أساسًا إلى حقيقة أننا نتألف من الجسد والروح وأن لدينا العديد من الأعضاء والميزات، بل بالأحرى لأن لدينا العديد من الاحتياجات، فنحن "معوزون". يتطلب وجودنا وصيانتته العديد من الأشياء التي تقع خارجنا. هذا هو السبب في أننا نحتاج إلى عدّة حواس، حتى نتمكن من الاتصال بهذه الأشياء، ومعرفة ماهيتها، وجعلها خاصة بنا والاستفادة منها. لكن الله ليس بسيطًا وغير معقد كما لو أنه مادة خاملة، أو "طاقة نقية"، كما تصوّره أرسطو، وإلى حد ما، اللاهوت السكولاستيكي. هذا المفهوم الفلسفي للبساطة غريب عن التقليد الكتابي والآبائي. الله بسيط لأنه "غير محتاج"، فهو يمتلك كل شيء بالفعل ولا يحتاج إلى أي إكمال أو اكتساب. وهكذا نرى في العهد الجديد أيضًا أن البسيط كامل بذاته وكريم، على عكس الشرير أو مزدوج الفكر [٤].

الله بسيط بالرغم من كونه ثلاثة أقانيم. إنه بسيط، رغم النظر إليه على أنه جوهر وقوة. إنه بسيط على الرغم من أنه مُدرَك وغير مُدرَك في نفس الوقت. في الواقع، يمكن القول إن الله بسيط لأنه ثلاثة أقانيم ولأنه يُنظر إليه على أنه جوهر وقوة: "لأن الله واحد في الجوهر والقوة: الآب والابن والروح القدس" [٥]. إنه بسيط أيضًا لأنه مُدرَك وغير مُدرَك: الله يتكاثّر رغم بقائه واحدًا، وهو منقسم وغير قابل للتجزئة ويشترك في كل الأشياء على الرغم من بقائه كاملاً ووحدته لا تنفصل عن القوة الفائقة الجوهر" [٦].

في التحليل الأخير، الله بسيط لأنه كلي القدرة وغير محسوس وبلا احتياجات. تزداد الأشياء قوة، كما يلاحظ القديس غريغوريوس بالاماس، بقدر ما تزداد بساطة؛ والفائق القوة هو الأبسط [٧]. لا يحتاج

إلى زيادة أو نقصان أو اقتناء ما ينقصه. الله، بتعبير القديس غريغوريوس بالاماس، "لكونه وحيداً، هو بسيط بشكل فائق الروعة، وهو لا يتطلب بأي حال من الأحوال إضافةً أو تقليلاً أو اكتساباً لأي شيء ينقصه. كونه كلي القدرة، فهو بالتالي الأبسط بين كل الأشياء"<sup>[٨]</sup>. ويكتب القديس سمعان اللاهوتي الحديث "الله سبب الكل هو واحد. هذا الواحد هو النور والحياة، الروح والعقل، الفم والكلمة... الناس أيضاً حاستهم في نفسهم وعقلهم وفكرهم، حتى لو تم تقسيمها إلى خمسة لتلبية احتياجاتنا المادية [٩]. تجتمع كل هذه الحواس وتنتهي في "النوس"، ملكة الإدراك المباشر التي تحكم هذه الحواس: "النوس يرى ويسمع".

الله نور. يلاحظ القديس سمعان: "الآب نور والابن نور والروح القدس نور. نور واحد، بسيط، غير معقد، لازمني، مشارك في الأبدية، متساوٍ في الشرف ومن نفس العقل"<sup>[١٠]</sup>. وكتب القديس غريغوريوس بالاماس أن هذا النور الإلهي ليس فقط غير منقسم بل هو أيضاً قوة موحدة ومقدسة. بالاعتماد دائماً على استجابة الذين يشتركون به، هو يوحدهم ويرفعهم إلى وحدة الآب وبساطته<sup>[١١]</sup>. على الرغم من أن جوهر الله لا يزال بسيطاً وغير مشترك، يلاحظ بالاماس، إلا أن قواه قابلة للمشاركة مع خلائقه. وعلى الرغم من أن الذين يشاركونه مخلوقون ولديهم أصل معين، فإن القوى الإلهية التي يشاركون فيها متعددة الأوجه غير مخلوقة وأبدية، "مرتبطة بشكل دائم بالله القدير المكتفي بذاته وسيّد الجميع من كل الأدهار"<sup>[١٢]</sup>. على أي حال، نعلم من الطبيعة أن النور الأبيض البسيط يحتوي جميع الألوان.

على الرغم من أن البساطة مرتبطة بملء القوة والكمال، فإن التوليف يأتي من الضعف والعوز. عندما لا يمكن لشيء ما أن يوجد ويحافظ على نفسه بقواه الخاصة، فإنه يلجأ حتماً إلى التوليف. الله موجود بنفسه كالكائن والذّي كان، وهو يرتب كل الأشياء دون امتلاك أو مشاركة. الأشياء المخلوقة لا توجد ككائنات في ذاتها بل كمشاركين ومالكين. في الله، الامتلاك يخص الكائن. في مخلوقاته، الوجود يتطلب الامتلاك.

[1] Dionysios the Areopagite, *On the Divine Names*, 1,3,PG 3,589C.

[2] Maximos the Confessor, *On Queries*,PG 91, 1257B.

[3] To Hionas 12, ed. P. Christou, *Γρηγορίου Παλαμά, Συγγράμματα*, vol. 4, Thessaloniki 1988, p. 159.

[4] See Matth. 6, 22-3; James 1, 5-6.

[5] Dialogue between an Orthodox and a Varlaamite 37, ed. P. Christou, *Γρηγορίου Παλαμά, Συγγράμματα*, vol. 2, Thessaloniki 1966, p.200. Cf. also para.50, p. 212.

[6] On divine and deifying sharing 23, *ibid*, p.157.

[7] Dialogue between an Orthodox and a Varlaamite 53, *ibid*, p. 215.

[8] *Ibid*, 54, p. 216.

[9] Ethical Discourse 3, 7.

[10] Theological 3, 141-3, SC 122.

[11] On divine and deifying sharing 6, *op. cit.*, pp. 141-2.

[12] On the divine energies 40-1, *ibid*, pp 125-6.